الخــطّ والكتــابة: بين استحكام العقل الشفويّ واطراد التصحيف والتحريف

د عادل محمد الصالح
كلية العلوم والآداب رفحاء
جامعة الحدود الشمالية المملكة العربية السعودية

Abstract

Our issue in question in this article is:

a- Writing and hand- writing were based on Jack Goody's expression: 'verbal mind' and its uniqueness in terms of the distinguished mediums to that of the 'written mind '.

b- Writing and hand- writing novel issues: when hand- writing became precise and writing surpassed the phase of ambiguity, various deficiencies appeared in the written culture. The most important deficiency was the issue of 'tasheef and tahreef' in remote and modern written books. This has been obvious in poetry, prose, oration, and other literary genres.

Keywords: 'oral mind', 'written mind', 'tasheef', 'tahreef'

Résumé

Notre but à atteindre dans cet article est :

a- L'écriture est basée selon Jack Goody sur la raison orale qui est différente au niveau de ses moyens de transmission à la raison graphique.

b− Les problèmes de l'écriture : quand l'écriture a dépassé la phase de l'ambiguïté on a constaté autres problèmes dans la culture savante, comme les agraphies et les déformations des mots dans les ouvrages écrits anciens et modernes et on voit ça clairement dans la poésie, la prose, et dans autres genres littéraire.

Mots-clés : raison orale, raison graphique, déformations des mots, agraphie.

الملخص:

سعينا في هذه المقالة إلى أن يجري البحث إلى غاية:

أ- **انبناء الخطّ والكتابة على العقل الشفويّ** حسب تعبير جاك قودي (Jack ــ Goody) وما يتميّز به العقل الشفويّ من وسائط مفارقة للعقل الكتابيّ.

ب - **الآفات الطارئة على الخط والكتابة:** لماّ استحكم الخطّ وتجاوزت الكتابة مرحلة الاستغلاق، ظهرت معايب كثيرة في الثقافة العالمة، ومن أهمّها إشكالية **التصحيف والتحريف** في الآثار المكتوبة قديما وحديثا، وقد برز ذلك في الشعر والنثر وغير ذلك من الأجناس الأدبيّة.

الكلمات المفتاحية : العقل الشفوي، العقل الكتابي، التحريف، التصحيف.

مقدّمة

تهدف هذه الدراسة إلى تقصّي مبحث الخط والكتابة في الثقافة العربية، بين انشداده إلى العقل الشفويّ وبروز آفات طارئة عليه في الثقافة العالمة (La culture savante) مثل: التصحيف والتحريف، وما ترتّب على ذلك من زلل ولحون وانتحال وتكرار وغيرها من المعايب الأسلوبية الكثيرة، ويهمّنا في هذا السياق أن ننزّل البحث في متون القدامى، حتى نتبيّن النصوص المؤسّسة للخطّ والكتابة وما اعتراها من نقص واستغلاق، فالناظر في مصنّفات القدامى والمحدثين يلحظ بيسر ندرة هذه الدراسات، لذلك رأينا أنّ بحثا في هذا الباب يعدّ تأسيسيّا.

لقد اكتفى المصنفون الأوائل في هذا الباب بالتوصيف والاستقراء، دون الوقوع على المختلفة وإبراز أنّ الخط والكتابة في الثقافة العربية تحكّمت فيهما أنظمة بنيويّة من داخل الثقافة ذاتها، وتكشف في الآن ذاته عن صراع بين نظامين مختلفين يتجاذبهما **الملفوظ المطلق والمكتوب المتناهي**. لذلك سنسعى في هذا السياق إلى الإحاطة بما سكت عنه القدامى وتفصيل القول في ما هفوا إليه، دون الوقوع في تكرار ماقيل، وما أفاض فيه الدارسون المحدثون.

افي الكتابة والعقل الكتابيّ : مقالات المتقدّمين

1 - ابن النديم (ت 380 هـ) وأصل الكتابة

أفرد ابن النديم مقالة في الكلام على الخطّ العربيّ، وفي وصف لغات الأمم من العرب والعجم ونعوت أقلامها وأنواع خطوطها وأشكال كتاباتها، وما يهمّنا في هذه المقالة الأخبار التي تنصّ على أصول الخطّ والكتابة، فينسب ابن النديم خبرا مرويّا عن هشام الكلبي للإخبار عن القلم العربيّ فيقول: "اختلف الناس في أوّل من وضع الخط العربيّ، فقال هشام الكلبي(ت 204 ه): أوّل من وضع ذلك قوم من العرب العاربة نزلوا في عدنان وأسماؤهم، أبوجاد، هواز، حطي، كلمون، صعفض، قريسأت. هذا من خط ابن الكوفي، بهذا الشكل والإعراب وضعوا الكتاب على أسمائهم. ثمّ وجدوا بعد ذلك حروفا ليست من أسمائهم، وهي: الثاء والخاء والذال والظاء والشين والغين فسمّوها الروادف قال: وهؤلاء ملوك مدين، وكان مُهلكهم يوم الظلّة في زمن شعيب النبيّ عليه السلام"[1].

يؤصّل هذا الخبر الخط العربيّ في العرب العاربة، فعمليّة الاصطلاح تمّت في أمّة العرب دون أن يكون الخطّ وافدا عليهم من الأمم الأخرى، وينهض هذا الخبر بوظائف مختلفة أهمّها أنّ الخطّ خصيصة للعرب. ويؤكد ابن النديم هذا الرأي قائلا: "قرأت بخط ابن أبي سعد على هذه الصورة وبهذا الإعراب: أبجاد، هاوز، حاطى، كلمان، صاع فض، قرست. قالوا هم الجبلّة الآخرة. وكانوا نزولا في عدنان بن أدد وأشباهه، فلمّا استعربوا وضعوا الكتاب العربيّ والله أعلم"[2].

ثمّ تسترسل الأخبار المؤصلة للخطّ العربيّ مختلفة في مرجعيّاتها، لكنّ مانلاحظه أنّ ابن النديم عدل عن طُرق القدامى في التصنيف المؤسّس على الانتقاء، فقد قدّم أخبارا متناقضة، ينقل: "وقال كعب وأنا أبرأ من قوله إنّ أوّل من وضع الكتابة العربيّة والفارسيّة وغيرها من الكتابات، آدم عليه السلام، وضع ذلك قبل موته بثلاثمائة سنة وكتبه في الطين وطبخه. فلمّا أصاب الأرض الطوفان، سلم، فوجد كلّ قوم كتابتهم فكتبوا بها"[3].

أورد ابن النديم هذه الأخبار التي لم تخل من تنسيب ومتخيّل تجلّى في إرجاعه نشأة الخط العربيّ إلى حقبة آدم. ويبدو أن المصنّف لم يقبل هذا الخبر، إذ تجلّى ذلك في قوله "وأنا أبرأ من قوله"، لكنّ غايته هي الجمع وإنْ كان في الأخبار ما لا يقبل، وقد تخلّل هذه الأخبار خبر مطوّل تفرّع إلى قسمين: الأوّل سنده ابن عباس والثاني مرويّ عن محمّد بن إسحاق. أمّا مدار الخبر الأوّل فهو الإخبار عمّن كان أوّل من كتب بالعربية، فيحدّد عدد الرجال في ثلاثة، ويضبط المكان الجغرافيّ وأصلهم، فينبئنا الخبر أنّهم عرب من الأنبار، كان اجتماعهم مدعاة إلى وضع حروف مقطّعة وموصولة، الأوّل منهم وضع الصور، والثاني فصل ووصل، والثالث وضع الإعجام. ثمّ تصبح الأنبار حسب الخبر مرجعا للخطّ العربيّ، فقد تلقّنه منهم أهل الحيرة. أمّا الخبر الثاني ففي إثبات أنّ الكلام العربيّ بلغة حمير وطسم

وجديس وارم وحويل باعتبارهم عربا عاربة. وأنّ إسماعيل لمّا حضر في الحرم ونشأ وكبر وتزوج في جُرْهُمَ فعلم كلامهم ثمّ اتسع الكلام، وظهر الشعر الجيّد الفصيح في العدنانية، وكثر هذا بعد معد بن عدنان، ثمّ اشتركت القبائل في أصل اللغات وحينئذ بعث الله نبيّه لأجل القرآن[4]. ويبدو أنّ هذا الخبر يدعم عربيّة القرآن، وهو بذلك يؤكّد القول بالتوقيف في اللّغة العربيّة، فقد أنزل القرآن عربيّا كما نصّ على ذلك القرآن ذاته. فمثل هذا الخبر هو جزء من منظومة مترابطة، فالنبوّة والوحي وختم النبوة وعربية القرآن هي قضايا سماعيّة، لايستدلّ عليها بالمقدّمات العقليّة، إذ هي مشاغل لا تتنزّل خارج مدار الخبر[5].

2 – العمران البشري واستحكام الخط والكتابة

يعدّ ابن خلدون (ت 808 ه) الخطّ والكتابة من عداد الصّنائع الإنسانيّة، أمّا الخطّ "فهو رسوم وأشكال حرفيّة تدلّ على الكلمات المسموعة الدالّة على ما في النّفس، فهو ثاني رتبة من الدلالة اللّغويّة، وهو صناعة شريفة". أمّا الكتابة فهي "من خواصّ الإنسان التي يُميّز بها عن الحيوان، وأيضا فهي تُطلع على ما في الضّمائر، وتتأدّى بها الأغراض إلى البلاد البعيدة، فتقضي الحاجات، وقد دفعت مؤونة المباشرة لها، ويطّلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأوّلين [...] وخروجها في الإنسان من القوّة إلى الفعل إنّما يكون بالتّعليم وعلى قدر الاجتماع والعمران والتّناغي في الكمالات والطّلب"[6].

يرى ابن خلدون أنّ الخطّ والكتابة من خصائص الإنسان، وهما من استتباعات العمران لا البداوة. ويُجمل مزايا الكتابة في التعبير عن الأغراض والتعرّف إلى العلوم والمعارف، وتكتسب هذه الصناعة بشرط تدبّرها ووجود العُمران. فالكتابة من مظاهر الحضر، والعقل الكتابيّ أساس العلم وعماده، وتلازمه صناعة الوراقة والخطّ المكمّل للكتابة، فالوراقة عدّة توثيقيّة يتزامن ظهورها وظهور الكتابة[7].

أ– الورق والوراقة

إنّ الورق جنس يشمل أنواعا مختلفة المادة والصورة، وقد ذكر ذلك ابن النديم في "الفهرست"عند الكلام على أنواع الورق، وتطلق كلمة الورق على ما دخلته الصناعة وهذّبته أساليب الحضارة، فخرج بذلك عن تلك الصور البدائيّة التي تتمثّل في أكتاف الإبل واللّخاف والعسب وذلك على النحو الذي نراه عند القلقشندي (ت 721هـ) في كتابه "صبح الأعشى" في الجملة التي جعلها في بيان أسماء الورق الواردة في اللّغة، فالصّلة بين الوراقة والحضارة صلة وثيقة، والنسبة بين استهلاك شعب مّا للورق ومبلغ نصيبه من الحضارة نسبة ثابتة مطّردة، فبقدر إحساسه بالحاجة إلى هذه المادّة، واستجابته لهذا الإحساس ومضيّه معه، وقيامه بهذه الحاجة، يكون حظّه من الحضارة بجانبيها: الماديّ والمعنويّ[8].

إنّ الوراقة صناعة تعظم وتزدهر بازدهار العُمران والحضارة وتوابعهما، وقد اختصّت بالأمصار العظيمة العمران، وما إن ينقص العمران وتعمّ البداوة حتّى تضمحلّ هذه الصّناعة وتغدو "صحائف مستعجمة برداءة الخطّ وكثرة الفساد والتّصحيف، فتستغلق على متصفّحها ولا يحصل منها فائدة إلاّ في الأقلّ النّادر، وأيضا فقد دخل الخلل في ذلك في الفتيا، فإنّ غالب الأقوال المعزوّة غير مرويّة عن أئمّة المذهب"[9]. أمّا المواد المعوّضة للورق فقد مثّلت أصولا لها وارتبطت بطور البداوة، ولهذا يرى ابن خلدون أنّ أهل البدو أميّون تغيب عنهم الكتابة والقراءة و"من قرأ منهم أو كتب فيكون خطّه قاصرا أو قراءته غير نافذة، ونجد تعليم الخطّ في الأمصار الخارج عمرانها عن الحدّ أبلغ وأحسن وأسهل طريقا لاستحكام الصّنعة فيها"[10].

ب- استحكام الخطّ

يستدل ابن خلدون على بلوغ الخطّ العربيّ مبلغ الإحكام والإتقان مع علوّ شأن العمران والحضارة في دولة التبابعة لما بلغته من التّرف، ويقدّم لنا مسالك انتقال هذا الخطّ بوصفه صناعة، فالخطّ الحميري المنسوب إلى التبابعة انتقل إلى الحيرة، إلاّ أنّه لم يلق الجودة نفسها عند أهله، ومن الحيرة تعلّمه أهل الطّائف وقريش[11]. وقد ورد في "كتاب المصاحف" في "باب الأمر بكتابة المصاحف" الخبر الآتي: "حدّثنا عبد اللّه قال: حدّثنا عبد اللّه بن محمّد الزّهري إن شاء اللّه حدّثنا سفيان عن مجالد عن الشعبيّ قال: سألت المهاجرين، من أين تعلّمتم الكتابة؟ "قالوا: من أهل الحيرة، وسألنا أهل الحيرة، من أين تعلّمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الأنبار. حدّثنا عبد اللّه قال: حدّثنا عليّ بن حرب عن هشام بن محمّد بن السائب قال: أكيدر دومة وهو الأكيدر بن عبد الملك الكندي، وأخوه بشر بن عبد الملك الذّي علّمه أهل الأنبار خطّنا هذا، فخرج بشر إلى مكّة فتزوّج الصّهباء بنت حرب بن أميّة، فولدت له جاريتين، وقال غير عليّ عن هشام بن محمّد إنّ خطّنا هذا سمّي الجزم، وأوّل ما كتب ببقّة، كتبه قوم من طيء يقولون هم من بولان وكان الشرقيّ يقول مرامر بن مرّة وسلمة بن حزرة، وهم الذين وضعوا هذا الكتاب، قال هشام الذي غضب على معاوية في قتل حجر بن عدي وقال غير عليّ إنّ بشرا لمّا تزوّج الصّهباء بنت حرب علّم هذا الخطّ سفيان بن حرب وقال عمر بن الخطّاب: ومن بمكّة من قريش تعلّموا الكتاب من حرب بن أميّة "[12].

تؤرّخ هذه الأخبار لظهور الخطّ العربيّ الذي كتبت به المصاحف، وقد انبنت على سلسلة من الأسانيد مختلفة، فكان الخبر الأوّل مرويّا عن الشعبيّ، وقد ورد نكرة ومداره تحديد الأصل الجغرافي للخطّ، وهو الحيرة والأنبار، كما حدّد الخبر الثّاني الأنبار مصدر تعلّم الخطّ، أمّا الخبر الثّالث فأفاد زواج بشر بالصّهباء، وفيه تحديد لاسم الخطّ وهو الجزم، كتب ببقّة به قوم من طيء، فقد تزوّج بشر الصّهباء بنت حرب بن أميّة وعلّم بشر سفيان بن حرب خطّ الأنبار ثمّ من بمكّة من قريش تعلّموا العربيّة من حرب ابن أميّة والد الصّهباء الذي تعلّمها عن بشر ومعاوية بن أبي سفيان تعلّم العربيّة عن عمّه سفيان بن حرب.

ورد هذا الخبر لتأكيد أصل الخطّ العربيّ بالأنبار، وإضافة إلى تحديد أصله الجغرافيّ يفيد الخبر بعدم اطّراده، ويدحض الرّأي القائل بوجود الكتابة قبل الإسلام، والحال أنّ مكّة كانت حينئذ مركزا تجاريّا عظم فيها العمران والحضارة، ممّا يستدعي حتما الكتابة لتحرير المواثيق والعقود، ولا أدلّ على هذا من دعوة القرآن إلى كتابة العقود ممّا يرجّح وجود الكتابة ومن كان على دراية بها، وقد ألغى ابن أبي داود أصول الخطّ العربيّ مغيّبا منابعه الأساسيّة، وهي الحيرة ليرجعه إلى منبت عربيّ[13].

يمثّل الخطّ والكتابة علامتين دالّتين على تحوّل في صفة الكلام، فهما يضبطان الكلام الشفويّ في الورق رغبة في الحفظ ودرءا للضياع. وإنّ الباحث في سيرورة الخط والكتابة في الثقافة العربيّة لا يظفر إلا بقليل الأخبار لتشكّلهما، لأنّهما ارتبطا ارتباطا وثيقا بجانب العقيدة، فالمجمع عليه أنّ القرآن نزل عربيّا لفظا ومعنى، فعلقت بهذا الطرح مباحث كلاميّة مثل الحدوث والقدم وما استتبع ذلك من إشكاليات التوقيف والاصطلاح.

إنّ الخطّ والكتابة يتنزّلان في إطار التدوين، وما اعتمده المسلمون الأوائل من عدّة توثيقيّة في ضبط مقاطع الوحي، وقد اختلفت المواقف في إدراك معرفة العرب بالكتابة قبل الإسلام، فنفى دارسون أن يكون للعرب دراية بها نظرا إلى أنّ حياتهم أدخل في البداوة، ولمّا كان الخطّ من الصنائع الحضريّة لم يتعرّفوا إليه، بل كان تعويلهم على الحفظ، فحُفظ الشعر والأنساب والأيام ثمّ مع ترسّخ الرسالة النبوية عوّل الناس على الحفظ لصونها وتبليغها على أحسن وجه. غير أنّ آخرين رأوا أنّ العرب قد عرفوا الكتابة قبل الإسلام، فالحفظ كان خصيصة تضاف إلى الكتابة، وقد انتشرت الكتابة في الحضر مثل سكّان نجد والحجاز والعراق، وأهل هذا الرأي يعتمدون في أخبارهم على ما ذكره ابن الكلبي (ت 204 ه) من أنّه تعرّف إلى أخبار العرب وأنسابهم من كتب بالحيرة[14].

ينقل أبو عبد اللّه الزنجاني "في تاريخ القرآن" أنّ الخطّ الحجازيّ مأخوذ من أهل الحيرة وأهل الأنبار، ووصل الخطّ إلى هذين البلدين من عرب كندة، وأجمع مؤرّخو العرب أنّ الخطّ دخل إلى مكّة بواسطة حرب بن أميّة بن عبد شمس، وكان قد تعلّمه في أسفاره من عدّة أشخاص منهم بشر بن عبد الملك أخو أكيدر صاحب دومة الجندل، ثمّ ينبري المؤلّف في تكرار الرّواية نفسها التّي يذكرها ابن أبي داود السّجستاني من حضور بشر إلى مكّة وتزوّجه الصّهباء بنت حرب بن أميّة وتعليمه جماعة من أهل مكّة ثمّ ارتحاله، غير أنّ عالم القرآن ينفرد بخبر مرويّ عن ابن عبّاس مفاده أنّ أهل الأنبار تعلّموا الخطّ من أهل الحيرة، ويورد الخبر أنّ أهل الحيرة أخذوا الكتاب العربيّ من طارئ طرأ عليهم من اليمن من كندة، وهذا الطارئ أخذ ذلك من الخفلجان كاتب الوحي للنبيّ هود[15]. ويذكر أنّ الرّسول حين دخل يثرب "كان فيها يهوديّ يعلّم الصّبيان الكتابة وكان فيها بضعة عشر من الرّجال يعرفون الكتابة، منهم سعيد بن زرارة والمنذر بن عمرو وأبيّ بن وهب وزيد بن ثابت ورافع بن مالك وأوس بن خولي"[16].

لقد نبّه ابن خلدون إلى أنّ تعلّم الخطّ من أهل الحيرة قول أقرب ممّن ذهب إلى أنّه قد تعلّم من إياد أهل العراق، يقول ابن خلدون: "وهو قول بعيد لأنّ إياد وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة والخطّ من الصّنائع الحضريّة [...] فالقول بأنّ أهل الحجاز إنّما لُقّنوها من الحيرة، ولُقّنها الحيرة من التتابعة وحمير هو الأليق من الأقوال"[17]، ولم يقتصر ابن خلدون على إيراد الأصول الجغرافيّة للكتابة، بل وصف حال الخطّ العربيّ مع حلول البعثة المحمّديّة، فلم ير فيه إحكاما وإجادة، فكان الخطّ العربيّ لأوّل الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التّوسّط لمكان العرب من البداوة والتوحّش وبعدهم عن الصنائع.

إنّ ابن خلدون يدحض رأي السّجستاني فيما ذهب إليه في الأصل الجغرافيّ للخطّ العربيّ، ولا نلمس البعد التبريريّ الذي نزع إليه صاحب "كتاب المصاحف"، فقد رأى ابن خلدون في العرب بداوة تبعدهم عن صناعة الكتابة، واستدلّ على ذلك برسم المصحف فأشار إلى عدم استحكام الخطّ وفساده، وقد استمرّ هذا سنّة تحتذى على الغلط الذي يشوبها لما في الأمر من تبرّك بما رسمه الصحابة خطأ أو صوابا، يقول: "وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه فاتّبع ذلك وأثبت رسما ونبّه العلماء بالرّسم على مواضعه، ولا تلتفتنّ في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفّلين من أنّهم كانوا محكمين لصناعة الخطّ وأنّ مايُتخيّل من مخالفة خطوطهم لأصول الرّسم ليس كما يُتخيّل بل لكلّها وجه يقولون في مثل زيادة الألف في لا أذبحنّه أنّه تنبيه على أنّ الذّبح لم يقع"[18].

يرجع ابن خلدون عدم الدّراية بالخطّ إلى أنّ علم الكتابة علم طارئ على العرب فكثر فيه التّصحيف والتّحريف، فالخطوط صنعة من الصّنائع الحضريّة التّي تعظم وتزدهر بازدهار العمران، يقول: "وما حملهم على ذلك إلاّ اعتقادهم أنّ في ذلك تنزيها للصحابة عن توهّم النّقص في قلّة إجادة الخطّ، وحسبوا أنّ الخطّ كمال، فنزّهوهم عن نقصه، ونسبوا إليهم الكمال بإجادته، وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح"[19].

II من الملفوظ المطلق إلى المكتوب المتناهي

لئن بحث ابن النديم في أصول الخط والكتابة فإنّ القلقشنديّ في "صبح الأعشى في صناعة الإنشا" فصّل القول في الخطّ والكتابة وقدّم مستلزماتهما وتوابعهما، فبدأ مصنّفه بجزء أوّل في فضل الكتابة ومدح فضلاء أهلها وذمّ حمقاهم، وهو بهذا ينزّل الكتابة في معايير أخلاقيّة بوصفها صناعة. ثمّ وصلها بما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العمليّة من الخطّ وتوابعه ولواحقه، فذكر آلات الخط من الدويّ (جمع دواة) وما يتّخذ منه ومقاديرها وكيفيّاتها ومعرفة أصناف الأقلام وصنعة برايتها "فتحا ونحتا وشقّا وقطّا ومقادير أطوالها وعدد ما يكون في الدواة منها وكيفيّة عمل الحبر، وحلّ

الذهب وإذابته اللازورد والمغرّة (الطين الأحمر يصبغ به) العراقية، وغير ذلك مما يحتاج إليه في صناعة الديوان"[20]. ثمّ تفرّع عن هذا المبحث مبحث ثان في أصل الخطّ ووضعه واختلاف الأمم فيه، وما يختصّ من ذلك بالخط العربيّ من تنويع أقلامه التي أحدثها أئمة الكتابة وتباين أشكالها واختلاف أوضاعها وما يستعمل منها في ديوان الإنشاء وما يلتحق بذلك من النّقط والشّكل والهجاء[21]، ثمّ تحدّث القلقشنديّ عن مستلزمات الكتابة فنقل لنا مقادير قطع الورق وما يناسب كلّ مقدار منها من الأقلام ومقادير البياض الذي يراعيه الكاتب في كتابته.

لم يحد القلقشنديّ عمّن سبقه في تأصيل الخطّ العربيّ، فقد عمل على وصل الكتابة بجانب عقديّ تجلّى في توظيف آيات قرآنيّة عديدة للتّدليل على مقصده، فقد بيّن أعظم شاهد لجليل قدر الكتابة أنّ الله نسب تعليمها إلى نفسه وعدّها من وافر كرمه ثمّ ذكر الشواهد في مدح الكتابة وبيان فضلها والحثّ عليها[22]، إلاّ أنّه قابل هذا المديح بما ورد في كتب الأوّلين من أخبار في مدح فضلاء الكتاب وذمّ حمقاهم، فاستشهد بما قيل فيهم من شعر، وما قيل في ذمّ حمقى الكتّاب وما تداوله الناس فيهم من أهاج[23].

في أخبار التصحيف والتحريف

لم يقتصر القلقشندي على إيراد ما قيل في هجاء الكتّاب شعرا، بل نقل طريف الأخبار التي تعكس استهجان من لم يتبصّر بالكتابة. فحفلت الأخبار بذكر المزح يقول: "وقد أكثر الناس من الحكايات المضحكة عن هذا النوع من الكتّاب ممّا صاروا به هزؤا على ممرّ الزّمان وتعاقب الأيّام"[24]، ويستدلّ بنماذج من الكلمات المصحّفة والمحرّفة لما لهذه الظاهرة من تأثير في تصريف الكلام وتشقيقه، كما تطرح مسألة التقبل للمتلفّظ، ولعلّ ما يهمّنا في هذه الظاهرة المستتبعة للخطّ والكتابة علاقة الشفويّ بالمكتوب، الشفويّ باعتباره أوسع وأعمّ من المكتوب المقنّن في الورق، فيذكر القلقشندي وجوها للتّصحيف والتّحريف منها "وحكى العبّاس بن أسد: أنّ أبا الحسن علي بن عيسى كتب إلى أبي الطيّب أحمد بن عيسى كتابا من مكّة فقرأه ثمّ رمى به إليّ فقال: اقرأ فقرأت: كتابي إليك يوم القرّ بالرفع. فقال: ما معنى يوم القرّ؟ فقلت: القرّ البرد، فقال: إنّما هو يوم القرّ بالفتح، حين يقرّ الناس، وهو اليوم الثاني من النّحر ومثل ذلك كثير"[25].

ومن المصنّفات القديمة التي تناولت هذه ظاهرة التصحيف والتحريف المستتبعة للكتابة، كتاب مهمّ عنوانه "شرح ما يقع فيه التّصحيف والتّحريف" لأبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري (تـ482هـ) وكتاب "تصحيح التّصحيف وتحرير التّحريف" لصلاح الدين خليل الصفدي (ت 764 ه)، فقد أسهب الكاتبان في تعداد تصحيفات النثر والشعر والتحريفات التي تطرأ عليهما، قال العسكري إنّ "الاحتراس من التّصحيف لا يدرك إلا بعلم غزير، ودراية كثيرة، وفهم كبير وبمعرفة مقدّمات الكلام، وما يصلح أن يأتي بعدها ممّا يشاكلها وما يستحيل مضامّتها لها ومقارنتها بها وتمتنع من وقوعها بعدها. وتمييز هذا مستصعب عسير إلاّ على أهله الحاملين لثقله والمستعذبين لمرارته"[26].

إنّ المصنّف ينبّه إلى التّصحيف، إذ يُتوصل إلى تجنّبه بالعلم الوفير، ويعدّ هذه الظاهرة مطّردة في العلم حيث إنّ الألفاظ والأسماء تتشابه في صورة الخطّ، فيقع فيها التّصحيف ويدخلها التّحريف. فقد صدّر العسكري كتابه بباب أوّل وسمه بـ "ما جاء في قبح التّصحيف وبشاعته وذمّ المصحّفين والنّهي عن الحمل عنهم وذكر من هجي بالتّصحيف" فيستهلّه بخبر يقول: "وأخبرنا أبو العبّاس بن عمّار أخبرنا عبد الله ابن أبي سعد الورّاق حدّثنا قعيب بن محرّر أخبرنا أبو مسهر عن سعيد بن عبد العزيز عن سليمان ابن موسى قال: كان يقال لا تأخذوا القرآن من مصحفيّ ولا العلم من صحفيّ"[27]، ثمّ ينقل نماذج من التصحيفات "أخبرنا ابن عمّار قال: انصرفت من مجلس عبد الله بن عمر [...] فمررت بمحمّد بن عبّاد بن موسى فقال: من أين أقبلت؟ فقلت: من عند أبي عبد الرحمان مشكدانة. فقال: ذاك الذي يصحّف على جبريل يريد قراءته (ولا يغوث ويعوق وبشرا) وكانت قد حكيت عنه"[28].

قدّم العسكري نماذج من القراءات المصحّفة، فقد وردت كلمة بشرا بدل "نَسْرًا" (نوح23/71). ونقل ما كان يتداول من تغيير في معاني الكلم يقول: "سمعت عثمان بن أبي شيبة يقرأ (جعل السّقينة في رجل أخيه) فقلت له: ما هذا؟ فقال: تحت الجيم واحدة. قال: وقرأ (من الخوارج مكلّبين)"[29]. ثمّ عرّف العسكري التّصحيف والتّحريف فقال: "فأمّا معنى قولهم الصحفيّ والتّصحيف فقد قال الخليل: إنّ الصحفيّ الذي يروي الخطأ عن قراءة الصّحف باشتباه الحروف. وقال غيره: أصل هذا أنّ قوما كانوا أخذوا العلم عن الصّحف من غير أن يلقوا فيه العلماء، فكان يقع في ما يروونه التغيير، فيقال عنده "قد صحّفوا" أي رووه عن الصّحف، وهم مصحّفون، والمصدر التّصحيف"[30].

ومن المصنّفات المهمّة في ذكر التّصحيف والتّحريف كتاب "تصحيح التّصحيف وتحرير التّحريف" لصلاح الدين الصفدي الذي يذكر عظم القضيّة فيقول: "وقد عمّت المصيبة ورشقت سهامها المصيبة، ولبس النّاس أرديتها المعيبة، وفشا ذلك في المحدّثين، وفي الفقهاء، وفي النحاة، وفي أهل اللّغة، وفي رواة الأخبار، وفي نقلة الأشعار، ولم يسلم من ذلك غير القرّاء، لأنّهم يأخذون القرآن من أفواه الرجال"[31].

ولعلّ الناظر في مصنّفات القدامى يقع على أخبار تدعم الزّعم القائل باطراد التصحيف والتحريف في المكتوب، فتناقل النصوص مشافهة أثار اختلافات كثيرة، لكنّ الصفدي استثنى القرآن من بليّة التصحيف والتحريف، وهو بهذا يدافع عن صحّة الوحي وسلامته، ويدعم الرّواية الشفويّة، ويطعن في الكتابة، وذلك باستثناء القرّاء ممّن صحّفوا وحرّفوا، فالصفدي يؤسّس لمرجعيّة السّلف من هذا الاستثناء، حتّى إنّه في تعداده لتصحيفاتٍ وتحريفاتٍ يعلّلها بالفشوّ في بعض القرّاء في الزمن القديم عادّا إيّاها من العجائب مصدّرا الخبر بالنّهي عن أخذ القرآن من مصحفيّ، والحديث من صحفيّ، ممّا يؤكد أيضا تفضيله الرّواية على المكتوب، وعزا ذلك إلى قراءة المهمل معجما والمعجم مهملا، وأنّ التّصحيف من استتباعات الكتابة والقراءة من الصّحف.

يتأتّى التّصحيف إجمالا من قراءة نصّ مكتوب وذلك برواية المقروء مشافهة بحروف متشابهة. وقد سار العسكري على نهج غير مألوف في التّصنيف، فقدّم روايات كثيرة حول التصحيف والتحريف في الشعر والنثر. فإذا به يطعن في حجّةٍ في علم الرواية، وهو حمّاد الرّاوية، حتّى أنّه لا يستنكف من ذكر ما نُسب إليه من تصحيفات. يقول: "وروى الكوفيّون أن حمّادا الراوية كان حفظ القرآن من الصحف فكان يصحّف نيّفا وثلاثين حرفا ذكرتها في الكتاب الآخر فكرهت إعادتها هنا، ولم أذكر من المعاد في الكتاب الآخر إلاّ ما لم أجد بدّا من إعادته لاتّساق الأبواب واطّراد الكلام وأكثره في هذا الباب"[32] .

إنّ عدم إجادة الخطّ وإحكامه مدعاة إلى وقوع التّصحيف باعتبار أنّ الكتابة صناعة وقد حدّد ابن خلدون مرجعين متباينين لنشأة التّصحيفات المختلفة، وهو بهذا كان أميل إلى وصلها بعدم استحكام الخط، لأنّ ردّها إلى الحفظ من شأنه أن يدعم القول بعدم توحّد دلالة المكتوب. ولعلّ كلا الرأيين يكمّل أحدهما الآخر، فالتّصحيف والتّحريف من استتباعات تقبّل الكلام سواء أكان شفويّا أم مكتوبا، غير أنّ المشافهة تؤسّس أكثر هذه الظواهر العالقة بالكلام لأنّ التقبّل سماعيّ فقط، ثمّ يكون للذاكرة الدور الأبرز في إعادة ما علق بها. لكنّ الذاكرة قد تقصر على إيراد ما يُتداول مشافهة، فتغيب الجزئيات والتفاصيل الدقيقة ممّا يحوج إلى الحذف والتأويل والتحريف[33].

مثّل الخطّ العربيّ في بدايات تشكّله منعرجا في تبويب المعرفة وترتيبها، واعتبر النصّ القرآنيّ مرجعا أساسيّا، فكان المسلمون الأوائل شديدي الحرص على صونه، إلاّ أنّ الخطّ العربيّ بقدر ما أعان في جمع القرآن ساهم في نشأة اختلافات جوهريّة في مرحلة لاحقة من تدوين المصادر والمتون في الأدب والشعر والأخبار، وذلك راجع أساسا إلى

عدم استحكامه وفساده، فغياب التّنقيط والحركات واختلاف المواقع الإعرابيّة والدّلالة كلّها أسباب أدّت إلى الخلاف، وهو الأمر الذي فصّله المستشرق الألماني إجنتس جولتسهر (I. Goldziher) في قوله: "وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصيّة الخطّ العربيّ الذي يقدّم هيكله المرسوم مقادير صوتيّة مختلفة، تبعا لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النّقاط. بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصّوتيّة، يدعو اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة العربيّة الأصليّة ما يحدّده، إلى اختلاف مواقع الإعراب للكلمة، وبهذا إلى اختلاف دلالتها. وإذًا فاختلاف تحلية هيكل الرّسم بالنّقط، واختلاف الحركات في المحصول الموحّد القالب من الحروف الصامتة، كانا هما السّبب الأوّل في نشأة حركة الاختلاف "[34].

2- وسائط الكتابة واستحكام المشافهة

تذكر المصادر أنّ النصوص الأولى المقروءة مشافهة وُثّقت في أدوات استنبطها العقل البشريّ وسيلة للتّدوين، يقول القلقشندي: "وقد كانت الأمم في ذلك متفاوتة، فكان أهل الصين يكتبون في ورق يصنعونه من الحشيش والكلإ، وعنهم أخذ الناس صنعة الورق، وأهل الهند يكتبون في خرق الحرير الأبيض، والفرس يكتبون في الجلود المدبوغة من جلود الجواميس والبقر والغنم والوحوش، وكذلك كانوا يكتبون في اللخاف (بالخاء المعجمة): وهي حجارة بيض رقاق، وفي النحاس والحديد ونحوهما، وفي عسب النخل (بالسين المهملة) وهي الجريد الذي لا خوص عليه، واحدها عسيب، وفي عظم أكتاف الإبل والغنم. وعلى هذا الأسلوب كانت العرب لقربهم منهم. واستمر ذلك إلى أن بعث النبي صلّى الله عليه وسلّم ونزل القرآن والعرب على ذلك، فكانوا يكتبون القرآن حين ينزل ويقرأه النبي صلى الله عليه وسلم في اللخاف والعسب، فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال عند جمعه القرآن:" فجعلت أتتبع القرآن من العسب واللخاف". وفي حديث الأزهري قبض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والقرآن في العسب" وربما كتب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعض مكاتباته كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى وأجمع رأي الصحابة رضي الله عنهم على كتابة القرآن في الرّق لطول بقائه، أو لأنه الموجود عندهم حينئذ. وبقي الناس على ذلك إلى أن ولي الرشيد الخلافة، وقد كثر الورق وفشا عمله بين الناس، أمر أن لا يكتب الناس إلا في الكاغد، لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير، بخلاف الورق فإنه متى محي منه فسد، وإن كشط ظهر كشطه. وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار، وتعاطاها من قرب وبعد، واستمر الناس على ذلك إلى الآن". [35]، وقد استدلّ القدامى على دقّة هذا الانتقال من الصدور إلى السطور باقتدار الرواة على الحفظ، فتحفل مصنّفات القدامى بالإشادة بمن جمع الشعر والنثر والقرآن حفظا، واعتبروا الحفظ أشرف خصيصة للأمّة. لكنّ أدوات الكتابة تمثّلت في بدائل وسائطيّة بدائية لنقل الكلام الشفوي بعد أنْ استحكمت بالنّفوس سنّة المشافهة حسب ما تفيد هذه الأخبار في جمع القرآن:

- "فتتبّعت القرآن أنسخه من الصّحف والعسب واللّخاف (قال أبو بكر اللّخف الحجارة الرّقاق) وصدور الرّجال".
- "فتتبّعت القرآن أجمعه من الرّقاع والعسب واللّخاف [يعني الحجارة] وصدور الرّجال فوجدت آخر سورة التّوبة [براءة] مع خزيمة بن ثابت " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ".
- "فجعلت أتتبّع القرآن في صدور الرّجال ومن العسب ومن الرّقاع ومن الأضلاع ".

"ولم يزل أبو بكر يراجعني حتّى شرح اللّه صدري بالذي شرح اللّه صدر أبي بكر وعمر، فجمعت القرآن أجمعه من الأكتاف والأقتاب والعسب وصدور الرجال ... قال يعقوب في حديثه فكانت الصّحف عند أبي بكر حياته حتّى مات ثمّ عند عمر حياته حتّى مات ثمّ عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه".

ومن أخبار الجمع الأخرى التّي تختلف فيها أدوات الكتابة عمّا سبق:

- "أنّ أبا بكر الصّديق كان جمع القرآن في قراطيس وكان قد سأل زيد بن ثابت النّظر في ذلك فأبى حتّى استعان عليه بعمر ففعل، وكانت تلك الكتب عند أبي بكر حتّى توفّي، ثمّ عند عمر حتّى توفّي، ثمّ كانت عند حفصة زوج النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم"
- "أراد عمر بن الخطّاب أن يجمع القرآن فقام في الناس فقال: من كان تلقّى من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم شيئا من القرآن فليأتنا به، وكانوا كتبوا ذلك في الصّحف والألواح والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئا حتّى يشهد شهيدان، فقُتل وهو يجمع ذلك إليه"[36].

تُخبر هذه المرويّات أنّ جمع القرآن كان على مراحل ومن قبل حفظة كثر، وتثبت أنّ أدوات الكتابة بدائيّة[37]، فحتّم عليهم ذلك الاستعانة بما علق في صدور الرّجال، وعلى امتداد الأخبار كلّها المتبقّية تظلّ أدوات الكتابة محافظة على صدور الرّجال وتضاف إليها عناصر أخرى. غير أنّ ما تجمع عليه هذه الأخبار هو طور جمع القرآن كتابة، وهي كتابة تلازمت مع سلطة المشافهة التّي تجلّت في سياقات مختلفة مثل صدور الرّجال والاستعانة بقراءة زيد عند أبي بكر وحضور الشّاهد لدى عمر، فتلازم الشّفويّ والمكتوب يحمل دلالات أوضحها بدائيّة أدوات الكتابة وأدقّها سلطة المشافهة باعتبارها سنّة مطردة[38].

إنّ الكتابة تدبّر وكمال وعقل، وهي "من بين الصّنائع أكثر إفادة لذلك، لأنّها تشتمل على العلوم والأنظار بخلاف الصّنائع، وبيانه أنّ في الكتابة انتقالا من الحروف الخطيّة إلى الكلمات اللّفظيّة في الخيال"[39]، فالكتابة متصوّر ذهنيّ قبل أن تتحوّل إلى مدرك حسّي يتشكّل في الحرف والكلمة والجملة والكتاب، وهي تعيد بناء الوعي الذّهني وييسّر مسلكها العقل الوسط بين المتصوّر والحرف والكلمة والجملة، إنّها إعادة صياغة للوجود، لكنّها صياغة تحمل أمارات كاتبها أو مؤلّفها، فانفصال المكتوب عن كاتبه ما هو إلاّ انفصال آنيّ. ويظلّ المكتوب لصيقا بكاتبه، يحمل مقاصده ونزعاته وآثاره، وهذا ما يعبّر عنه قول ابن خلدون بالتّحوّل "من الكلمات اللّفظيّة في الخيال إلى المعاني التي في النفس ذلك دائما فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلّة إلى المدلولات وهو معنى النّظر العقلي الذي يكسب العلوم المجهولة فيكسب بذلك ملكة من التعقّل تكون زيادة عقل"[40].

ومع بروز مرحلة تقييد العلم ظهرت هذه الأمارات في النصّ المكتوب في طور نقله إلى عدّة توثيقيّة لا تضاهي الورق في الجودة والإتقان، لكنّها مثّلت بداية التّدوين الذي تميّز بهنات منها بدائيّة هذه المواد، ثمّ غياب الشّكل والتنقيط ممّا أوقع كتبة الوحي في مزالق التّصحيف. لكنّ هذه المرحلة بالنّسبة إلى تاريخ التّدوين تمثّل بداية تقييد العلم وضبطه، إذ "هي في الواقع النّموذج الأوّل والأتمّ والأبلغ دلالة لكلّ عمليّة تدوين لاحقة"[41]. وهي مرحلة مرّت حسب جورج طرابيشي بأطوار مختلفة مثل التنقيط والتنوين والتقسيم والتحزيب، وتقول روايات بأنّ أبا الأسود الدؤلي(تـ96هـ) قد وضع الحركات، وتقول أخرى بأنّ نصر بن عاصم (تـ98هـ) أحد تلاميذ أبي الأسود الدّؤلي قد قام بهذا الضبط. ويتوسّل جورج طرابيشي بحجّة كتب القراءات اللاّحقة حتّى يُعطي صورة دقيقة عن بدايات التّأليف في هذا المجال[42]. بيد أنّ هذا التّدوين كان طارئا على المسلمين حينئذ، فكانت الوسائل التّوثيقيّة بدائيّة ويوازيها عدم استحكام الخطّ، لذلك لم تلق عمليّة التّدوين الأولى إقبالا، فزيد بن ثابت شبّه عمليّة الجمع بأنّها أثقل عليه من نقل جبل. ولمّا جمع أبو بكر القرآن طلب من زيد النظر في ذلك فأبى حتّى استعان عليه بعمر، ولمّا طُلبت الصّحف من حفصة أبت أن تدفعها، وقد اشترط عمر بن الخطّاب وجود شاهدين لإثبات آيات القرآن كتابة[43].

الخاتمة

تبدو سنّة المشافهة أعلق بالذاكرة من المكتوب، وقد احتفت المصنّفات القديمة بمن جمع القرآن حفظا، وعدّ ذلك من المحامد، فيذكر الزركشي (ت 794ه): " وقد حفظه في حياته جماعة من الصحابة، وكل قطعة منه كـان يحفظهـا جماعة كثيرة أقلّهم بالغون حدّ التواتر، وجاء في ذلك آثار ثابتة في الترمذي والمستدرك وغيرهما من حديث ابن عبّاس قال: "كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نـزل عليـه الشّيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: "ضعوا هذه الآيات في السّورة التي يذكر فيها كذا وكذا"[44]، ولعلّ هذا يعود إلى أنّ الكتابة طارئة على الحفظ، لأنّ القرآن كان يتلى قبل تدوينه، وقد غدا الحفظ سنّة محمودة حتّى في اطّـراد الكتابـة وتحديدا تدوين الوحي، فكثرت الأخبار التي تشيد بالحفظ والمستنقصة من الكتابة وارتباط التصحيف بها[45].

ومحصّل الأمر، لقد سعينا في هذه المقالة إلى أن يجري البحث إلى غاية تتمثّل في الكشف عن مسألتين مهمّتين تمثّلان مدار البحث وعماده :

أ- **انبناء الخطّ والكتابة على العقل الشفويّ** حسب تعبير جاك قودي (Jack ـــ Goody) وما يتميّز به العقل الشفويّ من وسائط مفارقة للعقل الكتابيّ، مثل الذاكرة والحفظ في الصدور، لاسيما أنّ الكتابة متأثرة بالتقليد الشفويّ ولم تستحكم إلاّ بفعل عامل الزمان فقد تجلّت في القول المكتوب أمارات الانفعال والأعمال اللغوية والتكرار وهـي من خصائص العقل الشفويّ وتبعاته.

ب – **الآفات الطارئة على الخط والكتابة:** لمّا استحكم الخطّ وتجاورت الكتابة مرحلة الاسـتغلاق ظهـرت معايـب كثيرة في التدوين وتداول الثقافة العالمة، ومن أهمّها إشكالية **التصحيف والتحريف** في الآثار المكتوبة قديما وحديثا، وقد برز ذلك في الشعر والنثر والخطابة وغير ذلك من فنون القول التي ذكرنا أمثلة منها، وهو مبحث لم يلق العناية والاهتمام لدى الدارسين لندرة المراجع فيه وسكوت القدامى عنه إلاّ في كتب قليلة اعتمدناها في مصادر البحث.

الهوامش:

---

[1] الفهرست، (أبو الفرج بن إسحاق) [تـ380هـ]، **الفهرست**، ط3، تحقيق رضا المازندراني، دار المسيرة، بيروت، 1988. ص، 7.

[2] نفسه، ص، 7.

[3] نفسه، ص، 7. وقال ابن النديم:" ذكر تيادوروس المفسّر في تفسيره للسفر الأول من التوراة: إن اللّه تبارك وتعالى خاطب آدم باللسان النبطي وهو أفصح اللسان السريانيّ، وبه كان يتكلم أهل بابل. فلما بلبل الله الألسنة تفرقت الأمم إلى الأصقاع والمواضـع وتبقّى لسان بابل على حاله. فأمّا النبطي الذي يتكلم به أهل القرى، فهو سرياني مكسور غير مستقيم اللفظ. وقال غيـره: اللسـان الذي يستعمل في الكتب والقراءة وهو الفصيح، فلسان أهل سوريا وحرّان. والخط السريانيّ، استخرجه العلماء واصطلحوا عليـه وكذلك سائر الكتابات. وقال آخر: إن في أحد الأناجيل أو في غيره من كتب النصارى، أنّ ملكا يقال له سيمورس، علّم آدم الكتابة السريانية على ما في أيدي النصارى في وقتنا هذا. وللسوريانيين ثلاثة أقلام وهي، المفتوح، ويسـمى اسـطرنجالا وهـو أجلّهـا وأحسنها ويقال له الخط الثقيل. ونظيره قلم المصاحف والتحرير. المحقق، ويسمى اسكولثيا ويقال له الشكل المدوّر، ونظيره قلـم الوراقين والسرطا، وبه يكتبون الترسّل ونظيره في العربية، قلم الرقاع. وهذا مثال الخط السريانيّ...". نفسه، ص، 14.

[4] نفسه، ص، 8.

[5] انظر،

De Prémare (Alfred Louis) *Les Fondations de l'Islam*, Editions du Seuil, 2002 pp 278-280

[6] ابن خلدون (عبد الرحمان) [تـ808هـ]، **المقدّمة**، دار الجيل، بيروت، د.ت. ص، 463.

[7] "الورق (بفتح الراء) اسم جنس يقع على القليل والكثير ، واحده ورقة، وجمعه أوراق، وجمع الورقة ورقات، وبه سمي الرجـل الذي يكتب ورّاقا[...] وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغداديّ وهو ورق ثخين مع ليونة ورقّة حاشية وتناسب أجزاء، وقطعـه وافر جدا، ولا يكتب فيه في الغالب إلا المصاحف الشريفة، وربما استعمله كتاب الإنشاء في مكاتبات القانات ونحوها كما سـيأتي

بيانه في المكاتبات السلطانية. ودونه في الرتبة الشامي، وهو على نوعين: نوع يعرف بالحموي، وهو دون القطع البغداديّ، ودونه في القدر وهو المعروف بالشامي، وقطعه دون القطع الحموي، ودونهما في الرتبة الورق المصريّ، وأيضا على قطعين: القطع المنصوريّ، وقطع العادة، والمنصوريّ أبر قطعا، وقلّ ما يصقل وجهاه جميعا. أما العادة فإن فيه ما يصقل وجهاه ويسمى في عرف الوراقين: المصلوح. وغيره عندهم على رتبتين: عال ووسط. وفيه صنف يعرف بالفويّ صغير القطع، خشن غليظ خفيف الغرف، لاينتفع به في الكتابة، يتخذ للحلوى والعطر ونحو ذلك. وإنما نبهت على ذلك وإن كان واضحا لأمرين: أحدهما، ألاّ نخلي كتابنا من بيان الورق الذي هو أحد أركان الكتابة، الثاني، أنه قد ينتقل الكتاب إلى إقليم لا يعرف فيه تفاصيل أمر الورق المصري كما لا يعرف المصريون ورقا غير مصر معرفتهم بورق مصر، فيقع الاطلاع على ذلك لمن أراده. ودون ذلك ورق أهل الغرب والفرنجة فهو رديء جدا، سريع البلى، قليل المكث، ولذلك يكتبون المصاحف غالبا في الرقّ على العادة الأولى طلبا لطول البقاء" القلقشندي (شهاب الدين أحمد) [تــ721هــ] ، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ط1، شرح وتعليق، محمّد حسين شمس الدين، دار الكتب العلميّة، لبنان، 1987، ج2، ص، 516.

[8] انظر، محمد طه الحاجري، الورق والوراقة، مجلّة المجمع العلميّ العراقيّ، م 1، 1961، ص ص، 65–88.

[9] المقدّمة، ص، 468.

[10] نفسه، ص، 463.

[11] نفسه، ص، 463.

[12] أبو داود السجستاني [تـ316هـ]، **كتاب المصاحف**، ط1، تحقيق آرثر جفري، المطبعة الرحمانية بمصر، 1946. ص ص، 4–5.

[13] انظر، *Les Fondations de l’Islam*, pp. 242-245.

[14] انظر، ابن الكلبي، **كتاب الأصنام**، المكتبة العربيّة، القاهرة، 1965.

[15] الزنجاني (أبو عبد الله)، **تاريخ القرآن**، ط1، تحقيق محمد عبد الرحيم، دار الحكمة للطباعة والنشر، دمشق، 1990. ص ص، 56–57.

[16] نفسه، ص، 60.

[17] المقدمة، ص، 464.

[18] نفسه، ص ص، 464–465.

[19] نفسه، ص، 465.

[20] **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ج1، ص،40.

[21] انظر، نفسه، ج1، ص، 40.

[22] ذكر القلقشندي "قال سعيد بن العاص: "من لم يكتب فيمينه يسرى" وقال معن بن زائدة: "إذا لم تكتب اليد فهي رجل" وبالغ مكحول فقال: لا دية ليد لا تكتب. قال الجاحظ: ولو لم يكن من فضل الكتابة إلاّ أنه لا يسجّل نبيّ سجلاً ولا خليفة مرضيّ ولا يقرأ كتاب على منبر من منابر الدنيا إلاّ إذا استفتح بذكر الله تعالى وذكر رسوله صلّى الله عليه وسلّم وذكر الخليفة ثم يذكر الكتاب كما هو مشهور في السجلات التي سجّلها رسول الله لأهل نجران وغيرهم وأكثرها بخط أمير المؤمنين علي بن طالب كرّم الله وجهه في شرفه ونبله وسابقته ونجدته..." نفسه، ص، 65.

[23] تحفل الذاكرة العربيّة حسب ما يورد القلقشندي بأخبار ذمّ الكتّاب فعدم الدراية بالكتابة يعدّ نقيصة استهجنها المصنفون: "فمن ذلك قول بعض المتقدمين يهجو كاتبا: (الوافر التام)

حِمارٌ في الكتابةِ يدّعيها كدعوَى آل حربٍ في زيادِ
فَدَعْ عَنْكَ الكتابةَ لَسْتَ مِنْهَا ولَوْ غرَقَتْ ثيابُكَ فِي المِدَادِ

وقول آخر: (المنسرح التامّ)

وكاتب كُتْبه تذكّرني (م) القُرْآنَ حتى أظلّ في عجب
فاللفظُ قالوا قلوبُنا غُلْفُ والخطُّ تبّتْ يَدَا أبي لَهَب"

وقول آخر: (الطويل)

يَعِي غَيْرَ ما قُلْنَا ويكتُبُ غيرَ ما   يَعِيه ويقرأُ غَيْرَ ما هوَ كاتبٌ.

وقول آخر: (الرجز المجزوء)

وكاتبٌ أقلامُهُ   معوّداتٌ بالغلطْ

يكشِطُ ما يكتُبُه   ثم يعيدُ ما كَشَطْ". نفسه، ص ص، 76–77.

[24] نفسه، ص، 77.

[25] نفسه، ص، 78.

[26] العسكري، **شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف**، تحقيق السيد يوسف، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1981، ص، 1.

[27] نفسه، ص، 10.

[28] نفسه، ص، 11.

[29] نفسه، ص، 12. وقد ورد التصحيف في موضعين في الآية الأولى "السقاية" على الصواب والتصحيف في كلمة "رحل" فقط، انظر سورة يوسف70/12. أمّا الآية الثانية: "الخوارج" تصحيف "الجوارح". انظر، سورة المائدة4/5.

[30] نفسه، ص، 14.

[31] الصفدي (صلاح الدين) [تـ764هـ]، **تصحيح التصحيف وتحرير التحريف**، ط1، تحقيق السيّد الشرقاوي، القاهرة، 1987. ص،8.

[32] شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، ص ص، 12–13.

[33] انظر،

Jack Goody, *Entre L'oralité et L'écriture*, PUF,1991, pp.91-108.

[34] إجنتس جولتسهر، مذاهب التّفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحليم النجّار، ط5، دار اقرأ، بيروت، لبنان، 1992، ص ص، 8–9.

[35] صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج2، ص ص، 515 –516.

[36] كتاب المصاحف، ص ص، 7– 10.

[37] وقد تمثّلت في المواد التالية:

– **الصحف:** قد جاءت في القرآن في صيغة الجمع:

–"و قالُوا لوْلاَ يَأتينَا بآيَةٍ مِنْ ربّهِ، أوَ لمْ تأتِهمْ بَيِّنَةُ مَا في الصُّحُفِ الأُولَى" طه133/20. –"أَمْ لَمْ ينبّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى" النجم36/53.– "إنّ هَذَا لَفِي الصّحُفِ الأُولَى، صُحُفِ إبْرَاهِيمَ ومُوسَى" الأعلى18/87–19. –"بَلْ يُرِيدُ كلّ إمْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً" المدثر52/74–"رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً، فيهَا كُتُبٌ قيِّمَةٌ" البيّنة3/98. إنّ صحف موسى في هذه الآيات هي التي أشار إليها القرآن في مواضع أخرى، وسمّاها بالألواح، في قوله تعالى: –"وَكَتَبْنَا لَهُ في الألواحِ منْ كلّ شيءٍ موعظةً وَتَفْصيلاً لكلِّ شيءٍ" الأعراف145/7. –"ولمَّا رجعَ موسى إلَى قومِهِ غضبْانَ أَسِفًا قَالَ بئْسَمَا خلَفْتُمُونِي من بَعْدِي، أعَجِلْتُمْ أَمْرَ ربِّكُمْ، وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وأخذَ برأسِ أخيهِ يجُرُّهُ إليهِ" الأعراف150/7. –"وَلمَّا سكَتَ عَنْ موسَى الغَضبُ أَخذَ الألواحَ وفي نسختِهَا هُدًى ورحمةٌ للذينَ هُمْ لربّهِمْ يَرهَبونَ" الأعراف154/7 لقد كانت الصحيفة تطلق أحيانا بمعنى اللوح، ومادة اللوح الخشب، كما ينصّ على ذلك أهل اللّغة، وكما يستفاد من قوله تعالى: "وَحَمَلْنَاه على ذاتِ ألواحٍ ودُسَرٍ" القمر13/54. وقد ظلّت هذه هي صورة الصحيفة إلى ما بعد الإسلام كما يدلّ على هذا إطلاق كلمة "المصحف" على مجموع الصحف التي كُتب القرآن فيها. انظر، الورق والوراقة، ص ص، 118–138.

–**العسب:** "العسيب والعسيبة، عظم الذنب، وقيل مستدقّة، وقيل منبت الشعر منه، وقيل عسيب الذنب منبته من الجلد و العظم[...] والعسيب: جريدة من النخل مستقيمة، دقيقة يكشط خوصها" لسان العرب، مادة (ع، س، ب).

ـــ**اللّخاف:** "اللخاف حجارة بيض عريضة رقاق واحدتها لخفة، وفي حديث زيد بن ثابت حين أمره أبو بكر الصديق رضي الله عنهما، أن يجمع القرآن قال: فجعلت أتتبعه من الرقاع واللخاف والعسب، وفي حديث جارية كعب بن مالك ، رضي الله عنه: فأخذت لخافة من حجر فذبحتها بها " نفسه، مادة (ل، خ، ف).

ـــ**الأكتاف:** "كتف، الكتف والكتف مثل كذب وكذب، عظم عريض خلف المنكب، وهي تكون للناس وغيرهم وفي الحديث: ائتوني بكتف ودواة أكتب لكم كتابا قال: الكتف عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان والدواب كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم". نفسه، مادة (ك، ت، ف).

–**قراطيس:** "القرطاس: ضرب من برود مصر والقرطاس والقرطس والقرطاس كلّه: الصحيفة الثابتة التي يكتب فيها [...] وقوله تعالى: ولو نزّلناه عليك كتابا في قرطاس، أي في صحيفة وكذلك قوله تعالى: يجعلونه قراطيس، أي صحفا. نفسه، مادة، قرطس. وانظر، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج2 ، ص، 514. الورق والوراقة، ص ص، 118–130.

– **الرقّ:** "قال المبرّد: هو ما يرقّق من الجلود ليكتب فيه. قال المعافي بن أبي السيار: ومن ثمّ استبعد حمله على اللوح المحفوظ، والمنشور والمبسوط، واختلف في الكتاب المسطور فيه، فقيل: اللوح المحفوظ، وقيل: القرآن، وقيل: ماكتبه الله تعالى لموسى وهو يسمع صرير الأقلام. صبح الأعشى، ج2، ص، 514. ويذكر الحاجري أنّ الرقّ قد كتب عليه المسلمون الأول المصحف، فكانوا منذ أوّل أمرهم قد جعلوا أكبر معولهم في الكتابة عليه، كما ظلّ إيثارهم له على القرطاس، وخاصة في تدوين العلم، دون أن يصرفهم عنه أو يهون عندهم حتّى فتحوا مصر، وملكوا زمام الأمور فيها، فلم يعد يعترض سبيل القراطيس إليهم شيء. فقد ظلّت تحمل بالقراطيس إليهم طابع الترف. كما اتخذ الرّق بتاريخه في كتابة المصحف وتدوين الحديث طابعا دينيّا رجح كفّته ومكّن من إيثاره. انظر، الورق والوراقة، ص ص، 78–81.

[38] Les Fondations de L'Islam, pp. 283-284.

[39] المقدّمة، ص، 475.

[40] نفسه، ص، 475.

[41] يميز جورج طرابيشي بين سيرورات مختلفة في تدوين العلم:

أ– تقييد العلم: التحوّل من صدور الرجال إلى مواد توثيقية مثل الورق والعسب واللّخاف.

ب – كتاب العلم: نقله إلى صحف بعد توفّر الورق.

ج – تدوين العلم: جمعه في دواوين.

د– تبويب العلم بمعنى الترتيب.

هـ– تصنيف العلم: تنظيم أبوابه في مصنفات متعددة الفصول، انظر، جورج طرابيشي، إشكاليات العقل العربي، ط2، دار الساقي، بيروت، لبنان، 2002.

[42] انظر، نفسه، ص، 63.

[43] كتاب المصاحف، ص ص، 7–10.

[44] الزركشي (بدر الدين) [تـ794هـ]، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت، د.ت. ج1، ص، 241.

[45] Solange Ory, *Du Coran récité au Coran calligraphié*, ARABICA, T.47, Leiden, 2000. pp.366-380.

المصـــــادر والمراجـــــع

I- المصـــــادر (رتّبنا قائمة المصادر والمراجع ترتيبا ألفبائيّا دون اعتبار "ابن" و "أبو")

أ– العربيّة

- الأصفهاني (حمزة بن الحسن) [ت360هـ]، **التنبيه على حدوث التصحيف**، دمشق، 1968.
- ابن خلدون (عبد الرحمان) [تـ808هـ]، **المقدّمة**، دار الجيل، بيروت، د.ت.

- الزركشي (بدر الدين) [تـــ794هـــ]، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت، د.ت.
-السجستاني (ابن أبي داود) [تـ316هـ]، **كتاب المصاحف**، ط1، تحقيق آرثر جفري، المطبعة الرحمانية بمصر، 1946.
- الصفدي (صلاح الدين) [تـــ764هـــ]، **تصحيح التصحيف وتحرير التحريف**، ط1، تحقيق السيّد الشرقاوي، القاهرة، 1987.
- العسكري (أبو أحمد الحسن بن سعيد) [تـــ382هـــ]، **شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف**، تحقيق محمد السيد يوسف، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق،1981.
- القلقشندي (شهاب الدين أحمد) [تـــ721هـــ] ، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ط1، شرح وتعليق، محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان،1987.
- ابن الكلبي [تـــ 204هـــ]، **كتاب الأصنام** ، المكتبة العربيّة، القاهرة، 1965.
- ابن منظور، **لسان العرب**، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- ابن النديم (أبو الفرج بن إسحاق) [تـــ380هـــ]، **الفهرست**، ط3، تحقيق رضا المازندراني، دار المسيرة، بيروت، 1988.

ب – باللسان الأجنبي

- De Prémare (Alfred Louis) ,
- *Les fondations de l'Islam entre écriture et histoire*, Editions du Seuil, 2002.
- *Aux origines du Coran questions d'hier approches d'aujourd'hui*, Cérès, édition 2000.
- Goody (Jack), *Entre l'oralité et l'écriture*, traduit de l'anglais par Dénise Paulme, P.U.F, 1991.

II- المراجع

ب– العربيّة والمعرّبة

- **الكتب**

–جولتسهر (إجنتس)، **مذاهب التّفسير الإسلاميّ**، ط5، ترجمة عبد الحليم النجّار، دار اقرأ، بيروت، لبنان، 1992.
–خطابيّ (محمّد)، **لسانيات النصّ، مدخل إلى انسجام الخطاب**، ط1، المركز الثقافيّ العربيّ، 1991.
–الزنجاني (أبو عبد الله)، **تاريخ القرآن**، ط1، تحقيق محمد عبد الرحيم، دار الحكمة للطباعة والنشر، دمشق، 1990.
–طرابيشي (جورج)، **إشكاليّات العقل العربيّ**، ط2، دار الساقي، بيروت، لبنان، 2002.
–**القرآن الكـــريم**، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنوّرة، دت. (كُتِب هذا المصحف وضُبط على ما يوافق رواية حفص بن سليمان بن المغيرة الأسديّ الكوفيّ لقراءة عاصم بن أبي النّجود الكوفيّ التابعيّ عن أبي عبد الرحمان عبد الله بن حبيب السلميّ عن عثمان بن عفّان وعليّ بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبيّ بن كعب عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم).

- **الدوريـــّات**

– الحاجري (محمد طه)، **الورق والوراقة، مجلّة المجمع العلمي العراقي**، م 13، 1961.
– حليفي (شعيب)، **تحويل المتعة من البناء الشفويّ إلى نسق المكتوب**، فصول، م14، عدد4، 1996.
– الشايب (محمد)، **هل المكتوب ضبط للمنطوق أم تحريف له**، من أعمال ندوة القراءة والكتابة منشورات جامعة تونس الأولى، 1982.
– كورباليس (مايكل)، **في نشأة اللّغة من إشارة اليد إلى نطق الفم**، ترجمة محمود ماجد عمر، سلسلة عالم المعرفة، عدد325، مارس 2006.

ت– اللسان الأجنبي

- **الدوريات**

- Ory (Salonge), *du Coran récité au Coran calligraphié*, in Arabica, Tome 47, 2000 Welch (A.T), Article, *Kurân*, E.I2, T.V. Leiden, EJ Brill, 1995.

– تمّ نشر هذا المقال بدعم من جامعة الحدود الشمالية
المملكة العربية السعودية